استعادة المعنى

سنان أنطون

وقفة

قبل كلّ شيء، وقبل كلّ سلام، ومن بعده، استحضارٌ لذكرى الذين سقطوا بسبب البربرية الإسرائيلية، واستحضارٌ لذكرى الذين وقفوا بشجاعة كي يُسْقطوها ثانية.

نادرةٌ هي اللحظات التي تستحقّ ـ وبجدارة ـ أن تكون منعطفًا تاريخيّاً يتغيَّر عندهُ الأفقُ السياسي، وتتزلزل معه مجموعةُ أفكار مهيمنة أو تتضعضع أركانُها على الأقلّ. فالحال أنّ ذاكرتَنا الجمعية العربية مكتظّةٌ بالهزائم، وبتاريخ جلُّه من الأكاذيب والخيانات التي طالما غُلِّفتْ بخطاب العنتريات الرثّ، ودَمَغَها النظامُ الرسمي بزيفه المعهود، ثم ساقها وسوَّقَها على أنّها انتصارات أو مراحلُ انتقاليةٌ نحو «النصر الحاسم» والحقّ أنّ هذا «النصر» استُخدم ذريعةً لتأجيل أيّ تقدُّم حقيقي، ولتبرير وجودِ دكتاتورياتٍ تفنّنتْ في قمعها واضطهادها للمواطن وتحالفتْ مع عدوّه سرّاً وعلانيةً. ولقد تفاقم الوضعُ حتى صارت الهوّةُ بين الكلمات وبين معناها القاموسي أكبرَ من أن تُحْتمل، وأضْحت هذه الكلماتُ «الكبيرةُ» مدعاةً للسخرية. ومن هنا تأتي أهميةُ هذه اللحظة، لحظةِ الانتصار الذي حقّقه حزبُ اللّه في مواجهته الأخيرة مع إسرائيل. وإنّ تسميته انتصارًا لا يعني أبدًا التقليلَ من فداحة الخسائر البشرية والمادية التي تكبَّدها لبنانُ وشعبُه. لكنّه نصرٌ ميدانيّ بامتياز، كما أنّه نصرٌ ساحقٌ على المستوى الرمزي الذي لا يقلّ أهميةً، خصوصًا في عالم اليوم

لِمَن النصر؟

لقد تساءل البعضُ، ولأهدافٍ ومصالحَ مفضوحة، عن الجهة التي سيجيَّر النصرُ لصالحها لا شكّ في أنّ النصر سيسجَّل، في أحد مستوياته المباشرة، لصالح حزب اللّه كحركة سياسية لها حساباتُها ومصالحُها الداخلية ضمن معترك السياسة اللبنانية ـ وهذا حقٌّ مشروع لكنّ للحرب، التي كانت هذه المعركةُ فصلاً من فصولها، مستوياتٍ أخرى أيضًا لا تقلّ أهميةً ترتبط بمشروع الإمبراطورية الأميركية وسيناريو «الشرق الأوسط الجديد» الذي نَعْرف أهدافَه ونتائجَه الكارثية في العراق وفلسطين ولعلّ الحربَ الأخيرة قد تُساعد البعضَ على التخلُّص من عمائهم الإيديولوجي لكي يعوا خطورةَ ما يَحْدث. فمن الحماقة أن يصدِّق أيُّ عاقل أنّ الإمبراطورية الأميركية تسعى إلى نشر الديموقراطية. ذلك أنّ ما ينتجه المشروعُ الأميركي هو أنظمةٌ دكتاتوريةٌ تنفِّذ مشاريعَ أميركا المحلية وتديم هيمنتها، كما هو الحال في منطقتنا منذ نصف قرن لكنّ الخطورة اليوم هي أنّ «القرن الأميركي الجديد» يَعِدُنا بطيشٍ يَحْلم فيه المحافظون الجُدد بإلغاءِ دولٍ بأكملها، وباستبدالها بكياناتٍ حسب مزاجهم وأحلامِهم الإمبراطورية، وبسوقٍ شاسعةٍ تلتهم ما تبقّى من موارد المنطقة وتستعبد شعوبَها بأرخص ما يمكن.

ولمّا كانت الحربُ أميركيةً ـ إسرائيليةً ولها أبعادُها وتبعاتُها التي تتعدّى لبنانَ وجنوبَه، فإنّ التصدّي لها من قِبل حزب اللّه يجب أن يُنظر إليه أيضًا من منظار مقاومة مشروع الإمبراطورية الأميركية. فليس من الصعب اليوم أن يدرك المرءُ أنّ المعركة ضدّ هذه الإمبراطورية هي معركةُ الكوكب بأكمله، الذي تُستنزف مواردُه البشريةُ والطبيعية بسبب هيمنتها التي تسير بالعالم نحو الهاوية. وهكذا فإنّ خنادق المواجهة التي وقف فيها مقاتلو حزب اللّه هي امتداداتٌ لخنادقَ شتّى في مواجهاتٍ شتّى في كلّ مكانٍ من الأرض مع الإمبراطورية ومشاريعها وتمظهراتها الحربائية لذلك وقف الملايينُ في الخندق الرمزي الشاسع تضامنًا مع المقاومة ومع الحقّ في الدفاع عن النفس (الذي تحتكره إسرائيلُ وتشوِّه معناه منذ تأسيسها) وتضامنًا مع المدنيين الذين استهدفتهم إسرائيلُ ببربرية قَرْوَسطية

الخزي والابتذال

من المخزي حقّاً أن يتردّدَ بعضُ المثقفين العرب العلمانيين في الوقوف في الخندق ذاته، مهما كان الاختلافُ عميقًا مع الإطار الإيديولوجي لحزب اللّه. بل لا يتردّد الكثيرُ من هؤلاء العلمانيين في انتقاد التطرُّف والإقصائية، لكنّهم يمارسونهما في الوقت ذاته ضدّ الآخر السياسي!

كما تمّ ابتذالُ مقولة «المقاومة» في السنين الأخيرة باستسهالِ إطلاقِها على أفعالٍ بل جرائمَ وحشيةٍ تُرتكب ضدّ مَنْ يُفترض

دجوني باربِرْ

بنات في سلعا يشاركن في نشاطات مع «حملة المقاومة المدنية»

أن تحرِّرهم هذه المقاومةُ والعراق ومذابحُه خيرُ مثال على ذلك إنّ إعادة الرأسمال الرمزي لـ «المقاومة،» أو إعادةَ تأكيدِ معناها الذي كان حزبُ اللّه أساسًا متميِّزًا في ترسيخه منذ سنوات طويلة، تصحيحٌ غايةٌ في الأهمية.

ميِّزات حزب اللّه

لقد نجحتْ إسرائيل منذ عقود في ترسيخ أسطورة القوة الخارقة و«الجيش الذي لا يُقْهر» ـ وهي أسلحةٌ ماضيةٌ في ترسانتها الرمزية وفي تفوُّقها الشامل لا تقلّ خطورةً عن الأسلحة الفتّاكة. ولئن تصدّعتْ هذه الأسطورةُ غيرَ مرةٍ بشجاعة الفلسطينيين وبتحرير الجنوب اللبناني، فإنّ ذكاءَ حزب اللّه وبسالةَ مقاتليه وصمودَهم الخرافي حطّمتْ تلك الأسطورةَ وأدخلت المؤسسةَ العسكريةَ الإسرائيلية في حالةِ ارتباكٍ وترنّحٍ لا سابقَ لها وفي دوّامةٍ ستطول وستطاول أبعادُها المجتمعَ الإسرائيليَّ بأكمله

أما الذاكرة الجمعية العربية التي اعتادتِ الهزيمة، فقد أدركتْ أنّ الانتصار على الآلة العسكرية الإسرائيلية، المدعومة والمجهّزة أميركيّاً، هو أمرٌ **يمكن** تحقيقُه بعدما كان يبدو محالاً كما أنّ الخطاب الذي استخدمتْه أثناء المواجهة قيادةُ حزب اللّه، ممثّلةً بالسيد حسن نصر اللّه، كان متميِّزًا بهدوئه وواقعيّته وابتعاده عن الخطابة المبالغ بها. ما كان أحوجَ الشعوب العربية إلى سياسيٍّ وقائدٍ يحترم عقولَ المواطنين وينفِّذ ما يَعِدُهم به ويرسم أفقًا واقعيّاً ـ وهو ما فعله السيّد حسن نصر اللّه بامتياز.

المقاومة: تفاؤل الإرادة

بالإمكان، إذًا، عرقلةُ المشروع الأميركي الإسرائيلي ومقاومتُه المطلوب هو أن تتوفّر الرؤيةُ والمعرفةُ اللازمة بتضاريس أرض المعركة، بكلّ ما تعنيه كلمةُ «تضاريس.» وهذا هو أثمن ما يُمْكن استخلاصُه من دروس الحرب الأخيرة لكنْ ليس من الحكمة الإفراطُ في التفاؤل: فشراسةُ الإمبراطورية وشراسةُ وكيلها المحلي لا حدودَ لهما، ولا حدود أيضًا للخنادق التي يمكن أن تُحفر أمام مشاريعها. وهنا مَنْ يقف وهناك من يعود ويبني من جديد. ولعلّ ما يجب أن نتسلّح به، في النهاية، هو ما نُسِب إلى غرامشي عن «تشاؤمِ الفكر وتفاؤلِ الإرادة »

نيويورك

د. سنان أنطون

شاعر وروائي عراقي أستاذ الأدب العربي في جامعة نيويورك.